منهج وطريقة رسائل النور وغايتها

–ABSTRACT–

Approach, Method and Purpose of the Risale-i Nur

Prof. Dr. Sener Dilek

Translated from Turkish into Arabic by: Orhan Mohammed Ali

The one who contemplates on the Risale-i Nur recognizes that, it as a fruit blossomed from the garden of Qur'an and illuminated by the efforts of Said Nursi. The Risale-i Nur has offered uncounted services to reach out with the message of the Qur'an and to spread it. Thus, the Risale-i Nur is a real fruit of the Qur'an. As such, its author was a doctor of souls and a source of wisdom. He was the Luqman of his time. Nursi diagnosed the dilemmas of his era and solved its most problematic issues by the curing medicine of the Qur'an as manifested in the Risale-i Nur. It is the pharmacy in which there are remedies for diseases of the times inspired from the light of the Quran. The Risale-i Nur is an excellent contemplation on the Qur'an which has directed its readers' attention to the Qur'an and referred them to its miraculous jewels that exist within its holy verses. The efforts of Nursi have indicated the jewels and precious stones in the holy book of the Qur'an by and his Risale-i Nur treats the hearts and addresses the minds of Nur students and many others. Thus, the Risale-i Nur has been able to cure the wounded hearts of many and guide the misguided to the right path. The method of the Nur Community for change called for by the Risale-i Nur in the Islamic World is distinguished by its serene, calm and effective nature. It is a community for the construction of human that stays away from irrational enthusiasm and away from confusion or controversy. The Risale-i Nur aims at establishing a pure community built on faith. Thus, it constantly and tirelessly urges its readers to stay away from political rivals and to avoid feeding their ego because anyone who wants to test the deep meanings of the Love of God and to delve into faith in Him and love for Him has his guide and instructor in the Risale-i Nur itself. The Risale-i Nur alone can guarantee his guidance because it relies on the Qur'an and revolves around its light. It is full of Qur'anic wisdom. The Risale-i

Nur is a spring of awaited hope for Islam.
Key Words: Risale-i Nur, Said Nursi, Faith Consciousness, Qur'anic Wisdom, Nur Community

– ملخص البحث –

أ.د. شَنَر دِلَك[1]
ترجمة: أورخان محمد علي (رحمه الله)

إن المتأمل في رسائل النور يجد أنها ثمرة أينعت من دوحة القرآن الكريم مستحلبة بجهود العلامة سعيد النورسي رحمه الله، فقد قدمت الرسائل لتبليغ وانتشار القرآن الكريم خدمات جليلة يعجز اللسان عن حصرها، فكانت بحق ثمرة من ثمرات القرآن، كما كان مصنّفها طبيب ولقمان عصره حكيما شخّص مشاكل العصر المحيّرة وحل عويصها ببلسم القرآن كما تجلى في رسائل النور التي هي صيدلية أدوية لأمراض العصر تستلهم وصفاتها من نور القرآن الكريم.

إن رسائل النور تدبّر قرآني بامتياز لفتت أنظار قرائها إلى القرآن الكريم ودلت على جواهره الثاوية في آياته الكريمة وجلبت إليها الأنظار، فكانت جهود الأستاذ دلالة على جواهر وألماس الكتاب الكريم عالجت بها وجدان طلاب النور وغيرهم وداوت قلوب الجرحى وردت آلاف التائهين إلى الصراط المستقيم.

إن منهج حركة التغيير التي جاءت بها الرسائل متميزة في العالم الإسلامي بهدوئها مع سكينة وفاعلية، فهي حركة بناءة مقتصدة في الحماس ميّالة عن الضجيج، تؤسس لحركة إيمانية صرف تنبّه إلى الابتعاد -باستمرار ودون كلل- عن الأهواء والصراعات السياسية، فمن يريد أن يسبر أغوار معرفة الله عز وجل ويغوص في الإيمان وحب الله فإن رسائل النور هي وحدها التي تضمن له ذلك، لأنها ترتكز على القرآن وتجعله محورها، فهي مليئة بالحكمة القرآنية، ومن ثمّ فإنّ الرسائل مبعث أمل منتظر في الإسلام.

لقد عملت رسائل النور على تأسيس شخصيّتها المعنويّة بالحكمة، واستمرّت في تقديم رسالتها بالكلام الرقيق الناعم واللسان العذب، وبصبر وتحمّل للآلام، استمرت في دعوتها بالحركة الإيجابيّة دون خوف أو وجل ودون أن تنكفئ على وجهها. وقد اتّخذت أساساً إنسانيّاً في أسلوبها وطراز حركتها، وتطلّعت إلى المستقبل بأمل، وكوّنت جيشاً من الفدائيّين الخُلّص.

القسم الأوّل: سلوك ونزعة رسائل النور

عندما يتمّ تدقيق حركة فكريّة أو نظام فكري أو عقائدي، توضع أوّلاً بعض المعايير الأساسيّة التي تكون قاعدة لهذا التدقيق والبحث، حيث يتم ضمن إطارها إمرار هذا النظام الفكري خلال مصافٍ دقيقة وعرضه على المحك. ذلك لأنّ طريقة الفحص والتدقيق توجب هذا، والوصول إلى الحقيقة يتطلّب هذا، وهكذا يمكن توضيح ماهية وقيمة ذلك النشاط وتلك الفعالية وذلك النظام الفكري ودرجة أهميّته. يقول النورسي سعيد النورسي مؤلّف كليات رسائل النور في كتابه ''المناظرات'':

''أروني مفسداً يقول: أنا مفسد، وما هو إلاّ مفسد إلا أنّه يتراءى في صورة الحق، أو يرى الباطل حقّاً. نعم؛ ما من أحد يقول: مخيضي حامض.. فلا تأخذوا شيئاً إلاّ بعد إمراره على المحك، لأنّ أقوالاً مغشوشة مزيّفة قد كثرت في تجارة الأفكار... حتّى كلامي أنا لا تأخذوه على علاّته -بحسن ظنّكم- لأنّه صادر عني فقد أكون مفسداً، أو أفسد من حيث لا أشعر، فعلى هذا تيقّظوا! ولا تفتحوا الطريق إلى القلب لكلّ طارِق. فليظلّ ما أقوله لكم في يد خيالكم، واعرضوه على المحك، فإن ظهر أنّه ذهب فأرسلوه إلى القلب، واحتفظوه هناك، وإن ظهر أنّه نحاس، فاحملوا على عاتق ذلك الكلام المنحوس كثيراً من الغيبة وشيّعوه بسوء الدعاء عليّ وردّوه خائباً إليّ''.[2]

وعلى ضوء هذه الحقائق وضعنا بعض الأسئلة التي هي بمثابة ''المحكّ''، فحسب رأينا فإنّ الحركات الفكريّة والنظم الإيديولوجية يجب أن تختبر وتمتحن بشكل جدّي بالأسئلة التي سنذكرها أدناه، وهكذا يتبيّن الخطّ الأساسي للنظام الفكري وجذوره وعمقه ومزاجه وهدفه وماهيته ضمن مقاييس محددة.

نستطيع ترتيب الأسئلة التي تختبر النظم الفكريّة كما يلي:

١- هل هذا النظام الإيديولوجي والحركة الفكريّة المراد امتحانها وفحصها تتوافق وتنسجم مع القوانين الفطرية؟

٢- ماهو منبعها ومصدرها وجذورها؟ أهي نابعة من الأرض أم هابطة من السماء؟ من يغذيها ويمدها بالقوة ومن أين؟

٣- ماهي تأثيراتها على العالم الداخلي للإنسان؟ أهي تأثيرات سطحية وشكليّة أم تأثيرات حيويّة عميقة وديناميكيّة؟

٤- ماهي قيمها الأساسيّة التي تمكّنها من تأسيس وتقوية البنية الاجتماعية؟ وهل لها ''أهداف'' و''أسس'' من زاوية البنية الاجتماعية والعلاقات الإنسانيّة؟ وهل تتّخذ

الاستقامة والعمل الإيجابي وتأمين الاستقرار والسكون أساساً لها، أم غايتها الحقد والذم والانتقام؟

٥- أهي نظم مربيّة ومعلمّة وموسعة لأفق التفكير؟ أم تقوم فقط بعرض الشعارات وبإثارة الأحاسيس والعواطف والأهواء أو تخديرها وإعطائها الأماني؟

٦- أهي باتّجاه واحد ومقتصرة على حياة واحدة وبُعد واحد، هو البعد الدنيوي فقط؟ أم تقوم بمزج المادّة مع المعنى وتحتضن الدنيا والآخرة معاً؟

٧- أهي تحت تأثير تيّارات ضارّة وهدامة داخلية كانت أم خارجية؟ أيمكن أن تدخل إلى مدارات تلك التيارات وتكون آلة بأيديها وتابعة لها؟

في القسم الأوّل من محاضرتنا سنقوم ببعض التقويمات المتعلّقة بهذه الأسئلة، ونوضّح كذلك بإيجاز سلوك رسائل النور ونزعتها ضمن إطار الأسئلة المدرجة أعلاه.

أمّا في القسم الثاني والثالث من المحاضرة، فسنتناول ''منهج وطريقة رسائل النور وغايتها'' بخطوط عامّة وبشكل منهجي، وبصورة تصلح لأن تكون أجوبة على هذه الأسئلة.

السؤال الأوّل:

أتنسجم رسائل النور وتتلاءم مع قوانين الفطرة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لنبيّن شيئاً موجزاً حول قوانين الفطرة.

قوانين الفطرة: هي مجمل ومجموع القوانين التي وضعها الله في الكون، الجارية في العالم، والتي أدرجها الله تعالى في ماهية الإنسان ممّا نطلق عليها اسم ''سنّة الله'' أو ''صبغة الله''. قسم من هذه القوانين جارٍ في الكون، والتي تكتشفها العلوم التجريبيّة كقانون الجاذبيّة الأرضيّة، وقانون أرخميدس في قوّة رفع الماء للأجسام... الخ، والقسم الآخر هو القوانين المذكورة في طبيعة الإنسان.

وندرج أدناه بعض هذه القوانين الفطريّة حسب أهميّتها:

- ''البشرية لا تستطيع العيش دون دين''
- ''حبّ التملك فطري في الإنسان''
- ''الإنسان في حاجة للعطف وللشفقة لأنّه خُلق ضعيفاً''
- ''الإنسان عبد للإحسان''
- ''لا يستسيغ الإنسان الدكتاتوريّة والإرهاب''

• ''الإنسان ليس مخلوقاً مادياً وسفليّاً. فإن كانت معدته محتاجة إلى الرزق فإنّ قلبه وروحه محتاجان إلى الأرزاق المعنويّة''

• ''الإنسان مخلوق لحياة أبديّة، وفطرة الإنسان تبحث عن الحياة الأبدية ونور البقاء''

• ''الإنسان يتذكر من يحبّه، ويذكر من يحبّه''

• ''الالتجاء والاستغفار والاستمداد والدعاء والطلب من لوازم فطرته التي لا يستطيع الاستغناء عنها''

• ''تتطلّب الفطرة منزلة معتبرة للإنسان''

إنّ هذه القوانين الموضوعة للكون والمنقوشة في الفطرة لا يمكن نزعها من الكون ورميها، ولا يمكن إخراجها من الفطرة وإهمالها، والإنسان يصل إلى كماله عندما يدرك جيداً العلاقة بين هذه القوانين وعندما يؤسس التوازن بينها. ولكنّ اكتشاف أسس هذه القوانين وإدراك التوازن الدقيق فيما بينها وتفسيره والنفوذ إلى كلّ طبقات الحياة وعكس الحكمة والعدالة الموجودة بين جميع هذه العلاقات شيء فوق الطاقة الإنسانيّة، لهذا السبب فإنّ البشر في حاجة إلى مدرّس وإلى معلّم ومفسّر يشرح له هذه الأسس ويوضّح له هذه الحقائق.

وهذا المعلّم والمفسّر هو القرآن الكريم والفرقان الحكيم، حيث تعرض رسالة النور هذه الحقيقة بالشكل التالي:

''هو الترجمة الأزليّة لهذه الكائنات والترجمان الأبديّ لألسنتها التاليات للآيات التكوينيّة، ومفسّر كتاب العالم.. وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المُضْمَرة في سطور الحادثات''.[3]

فحسب النورسي فإنّ هذا الكون الرائع العظيم والكامل هو الكتاب الكبير، أمّا القرآن الحكيم فهو قراءة كتاب الكون هذا وتلاوة نظامه، فهو يقرأ شؤون المصور الأزلي ويكتب أفعاله. وهذا الإعلان الحاسم من النورسي يوصلنا إلى النتيجة التالية، وهي أنّنا لكي نفهم قوانين الفطرة فعلينا بمطالعة القرآن الكريم.

عندما نقرأ كليات رسائل النور نتقابل مع الحقيقة التالية وجها لوجه: أنّ الوظيفة التي أخذتها على عاتقها هي إيضاح قوانين الفطرة هذه السارية في الكون وفي الإنسان. ولمّا كانت رسائل النور تفسيراً حقيقيّاً ومعنويّاً للقرآن الكريم، فإنّ غايتها هي قراءة كتاب الكون وبيان هدف الفطرة ونتيجة الخلق ومصيرها، ذلك لأنّ الله سبحانه

وتعالى خلق الكائنات من أجل الإنسان، وخلق الإنسان لمعرفته ومحبّته. لنستمع إلى هذه الحقائق من النورسي:

''اعلم يقيناً أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية. هو 'الإيمان بالله'.. واعلم أنّ أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية.. هو 'معرفة الله' التي في ذلك الإيمان. واعلم أنّ أزهى سعادة للإنس والجنّ، وأحلى نعمة.. هو 'محبة الله' النابعة من تلك المعرفة.. واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان، وانقى بهجة لقلبه.. هو 'اللذة الروحية' المترشحة من تلك المحبة.

أجل! إن جميع أنواع السعادة الحقة، والسرور الخالص، والنعمة التي ما بعدها نعمة، واللذة التي لا تفوقها لذّة، إنما هي في ''معرفة الله''.. في ''محبة الله''. فلا سعادة، ولا مسرّة، ولا نعمة حقاً بدونها.

فكلّ من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور محبته، سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهي، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إمّا فعلاً وواقعاً أو استعداداً وقابلية. بينما الذي لا يعرف خالقه حقّ المعرفة، ولا يكنّ له ما يليق من حب وودّ، يصاب بشقاء مادي ومعنوي دائمين، ويظلّ يعاني من الآلام والأوهام ما لا يحصر''.[4]

وهكذا فإنّ الغاية الأولى لرسائل النور هي إيضاح وبيان أسمى نتيجة للفطرة، وهي معرفة الله ونقش محبته في القلوب وفي الأرواح. وهذا هو محور رسائل النور التي يزيد عدد صفحاتها على ستة آلاف صفحة. فهي تدور على الدوام حول هذا المعنى تشرحه وتبحث فيه، وبهذا المعنى تشعل القلوب وتنوّرها. ويوجز مولانا جامي ''الذي اشتعلت فطرته بالوجد وبالعشق الالهي السامي'' هذا بهذه الأبيات:

''اقصد الواحد، فسواه ليس جديراً بالقصد.

ادع الواحد، فما عداه لا يستجيب دعاء

اطلب الواحد، فغيره ليس أهلاً للطلب

شاهد الواحد، فالآخرون لا يشاهَدون دائماً، بل يغيبون وراء ستار الزوال.

اعرف الواحد، فما لا يوصل إلى معرفته لا طائل من ورائه.

اذكر الواحد، فما لا يدلّ عليه من أقوال وأذكار هراء لا يغني المرء شيئاً''.[5]

ويوضح النورسي فيقول: ''إنّ من يشقّ طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس

حركة، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر".[6] فتدوسها عجلات الحياة الاجتماعيّة وتقضي عليها. فمن يعادي الفطرة ويخالفها منعت الفطرة عنه موافقتها وتأييدها. والشيوعية أفضل مثال حي على هذا على مسرح التاريخ. ذلك لأنها سقطت وانهارت لأنها خالفت الفطرة. وكل النظم التي تخالف الفطرة ستسقط وستتهاوى عاجلاً أم آجلاً وتكون أثراً بعد عين.

ويبين النورسي العلاقة بين الإسلام وقوانين الفطرة في الجمل التالية:

" تأمّل في حقائق الشريعة مع تلك المصادمات العظيمة والانقلابات العجيبة، وفي هذه الأعصار المديدة تَرَها قد حافظت على موازنة قوانين الفطرة وروابط الاجتماعيات اللاتي بدقتها لا تتراءى للعقول مع كمال المناسبة والمصافاة معها. فكلّما امتد الزمان تظاهر الاتصال بينها. ويتظاهر من هذه الحالة؛ أنّ الإسلاميّة هي الدين الفطريّ لنوع البشر وإنّها حق، لهذا لا ينقطع إن رقّ".[7]

السؤال الثاني:

ما منبع ومصدر رسائل النور؟... أهي أرضي أم سماوي؟... من أين يغذي ومن قبل من؟

إنّ منبع ومصدر رسائل النور هو القرآن العظيم ومرشدها هو الرسول العظيم محمد ﷺ، وسبيلها هو السبيل القويم لأهل السنّة والجماعة، فليست هناك قوة من بين القوى التي تبقى المجتمع حياً وقوياً وتربط الناس بعضهم ببعض وتوحدهم لها قوة تأثير مثل قوة الدين، وليست هناك قوة تستطيع أن تحلّ محل قوة الدين. ولكي تستطيع أيّة قوة النفوذ إلى أعماق قلب الإنسان وروحه، وربط روحه وقلبه بالحقائق، وإثارة الكرامة الإنسانية بمشاعر الشوق والوجد، فلابدّ أن يكون مصدرها ومنبعها قدسيا وإن لم تكتسب هذه القوى قدسية عامّة وكلية فان تأثيرها سيكون باهتاً وضعيفاً. فإن كان المصدر مقدساً فإنّ التأثير سيكون جذريّاً وعميقاً وكليّاً ودائميّاً، ويشرح النورسي هذه الحقيقة كما يلي:

"أرى أنّ قسماً من الفضائل التي تعود إلى حقائق القرآن تُمنح إلى الوسائل التي تقوم بدور الدعاة والدالين على تلك الحقائق.

والحال أنّ هذا خطأ، لأنّ قداسة المصدر وسموّه هو الذي يولد تأثيراً يفوق تأثير براهين كثيرة. وعوام الناس إنّما ينقادون للأحكام بهذه القدسية".[8]

وهكذا فإنّ رسائل النور تستمدّ لمعانها من قدسية القرآن وتترنّم بهذه القدسية. يقول النورسي:

''أرى من الفضول التحري عن برهانٍ وفي اليد معجزة خالدة، القرآن
أتُراني أتضايق من إلزام الجاحدين، وفي اليد برهان الحقيقة، القرآن''.[9]

السؤال الثالث:

ما تأثير رسائل النور على العالم الداخلي للإنسان؟... وهل هذا التأثير سطحي وشكلي أم حيوي وديناميكي وعميق؟

تهتمّ رسائل النور بالبنية الداخليّة للإنسان وتتّجه لتزيينها. وتأثيرها عميق وحيوي وجذري، إذ تقوم بتشكيل الروح، وتوسيع أفق التفكير وتؤمّن امتزاج العقل مع القلب، وتهيّء الإنسان لأكبر وأفضل تغيير. فهي تزرع في عالمه الداخلي مشاعر علوية مثل طلب الرضا الإلهي، والإخلاص والفداء والصفاء والصدق. والعالم الغربي والمدنية الغربية لا تعرف مثل هذه المشاعر ولا تفهم مثل هذه المفاهيم، لأنّها مشاعر إيمانيّة وعمليّة ووجدانيّة وحاليّة وليست قولية أو لسانية. ولأنها ليست ضمن الثروة والمادة ولا ضمن الشهرة والمظاهر الخادعة.

إنّ الحياة والعمل هما ساحة تأثير رسائل النور، فتأثيرها يظهر في التصرّفات ويُقرأ في سيماء الوجوه.

السؤال الرابع:

ما القيم الأساسيّة لرسائل النور التي تمدّ أساس وقاعدة البنية الاجتماعية بالقوّة والمنعة؟ وهل لها أهداف وأسس من زاوية البنية الاجتماعية والعلاقات البشرية؟... أتتّخذ الأمن والاستقرار والفعاليّات الإيجابيّة أساساً لها أم تتّخذ الحقد والانتقام وإراقة الدماء هدفاً لها؟

تعطي رسائل النور أهميّة كبرى لصحّة البنية الاجتماعية ولاتّجاهها، لذا تبذل جهدها لتأمين الهدوء الاجتماعي والراحة العامّة. ولا تعير أيّ اهتمام أو التفات لحركات التدمير والهدم والتمزيق، بل ترفع شعار الحركة الإيجابية وترى فيها وظيفتها ومهمّتها، ولا تسمح مطلقاً بالفعاليات السلبيّة، بل تسعى لتقوية أواصر المحبّة والأخوّة في بنية المجتمع، وتطرح ضرورة الإتحاد والامتزاج. وتردّ بشكل مطلق وتطرد كل المشاعر والأفكار التي أطفأت روح الأخوة التي يأمر بها ديننا الإسلامي، والتي مزّقت المحبة والإخلاص الموجودين بين المسلمين، كالشعور القبلي أو العشائري أو الفكرة القومية أو العنصرية أو الملية السلبية.

إنّ رسائل النور ترى أنّ الحق يجب أن يكون هو نقطة الاستناد والارتكاز في البنية الاجتماعية، وفي المجتمعات التي يراعى فيها لا يبقى هناك أيّ مجال للقوة الغاشمة ولا تحكمها مثل هذه القوة. ففي المجتمع الذي يوزع فيه الحق بصورة عادلة يجد الاتفاق متنفّسه وحياته.

إنّ استحصال الرضاء الإلهي وتحقيق الفضيلة هو هدف وغاية رسائل النور التي تسعى لتحقيقها في البنية الاجتماعية. وفي المجتمعات التي تحلّ المادّة والمنافع المادية محلّ الفضيلة والتي تنتشر فيها المظاهر الخداعة والتصفيق، تكون العلاقات قائمة على أسس النفاق والتزلف، وفي مثل هذا الجو لا يمكن تأسيس المحبة الحقيقية والتساند.

وترى رسائل النور في التعاون دستوراً للحياة الاجتماعية، لذا فهي تهرع لمساعدة الفقير والعاجز والمحتاج والوحيد الذي لا عائلة له، واليتيم والذي لا صاحب له ولا صديق. وهي لا تسمح بالتقاتل والتصادم ولا بالحقد وإراقة الدماء، بل تحاول بشفقة وحلم مداواة الأمراض الاجتماعيّة.

السؤال الخامس:

أتقوم رسائل النور بالتربية والتعليم وتوسيع الأفق وبيان السبيل القويم؟... أم تقوم باختراع الشعارات أو بالتخدير وبتقديم السلوان أو بإثارة الأهواء؟

لقد تأسّس سلوك رسائل النور على محور القراءة، وهدفها تربية مخاطبيها بالحق وبالمعرفة عن طريق القراءة وإكسابهم الشخصية الواثقة. إنّ مطالعتها لذيذة ومنهجها مقنع، إذ تتناول المسائل تناولاً منطقيّاً وتحليليّاً، وتعجنها بالأدلّة وبالبراهين، فإلى جانب استفادة العقل يستفيد القلب والروح واللطائف السرية الموجودة لدى الإنسان، ويأخذ كل منها نصيبها، فمعانيها سامية وأفقها واسع، وهي ترمي لتنشئة عناصر دعوة مثالية لهم همم عالية.

ونقدم المنهج التالي لرسائل النور لمؤسسات التربية وعلماء التربية فهو يستحق منهم البحث والتحليل:

يقول النورسي "إن تصوير الأمور الباطلة تصويراً جيداً جرحٌ للأذهان الصافية وإضلال لها".[10]

ولهذا السبب فإنّ طراز التربية لدى رسائل النور هو تقديم الشيء الإيجابي والشيء الصحيح دون شرح الباطل، أي المداواة دون فتح جرح، ذلك لأنّ الانشغال

بالأمور السيئة ستخلّف آثاراً سيئة في القلب وفي الروح وتعكر الأذهان الصافية. وبدلاً من الأفكار السيئة والسلبية، وبدلاً من إطلاق الشعارات تقوم رسائل النور بتنوير القلوب والنفوس وتبديد الظلام منها، فتعلّم الخير لكي يتميّز عن السوء، وتعلّم الحق لكي تنقذ من الباطل.

السؤال السادس:

هل رسائل النور باتجاه واحد ومقتصرة على حياة واحدة وبُعد واحد هو البعد الدنيوي فقط؟... أم تقوم بمزج المادّة مع المعنى وتحتضن الدنيا والآخرة معاً؟

ولكون نظم التفكير الغربي على مدار التاريخ وكذلك في أيّامنا الحالية تناولت حقيقة الإنسان ببُعد واحد ذي صبغة مادية، فإنها لم تصل أبداً إلى أعماق الإنسان ولم تعرف دقائق روحه ولا سماته الملكوتية، والنتيجة أنّها بقيت بجناح واحد ولم تستطع تأسيس التوازن، بينما نرى أنّ رسائل النور -لكونها تترنم بأسس الإسلام التي هي نبع الحياة والسعادة الحقيقة- تأخذ بنظر الاعتبار المسؤولية الأخروية للإنسان ووظائفه العبوديّة بشكل حسّاس وجدّي إلى جانب وظائف الإنسان الدنيويّة ومسؤولياته الاجتماعية، يقول النورسي:

"فلابدّ أنّ أسعد إنسان هو مَن: لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا.. ولا يضحي بآخرته للدنيا.. ولا يفسد حياته الأبديّة لأجل حياة دنيويّة.. ولا يهدر عمره بما لا يعنيه.. ينقاد للأوامر انقياد الضيف للمضيّف. ليفتح باب القبر بأمان.. ويدخل دار السعادة بسلام".[11]

السؤال السابع:

هل رسائل النور واقعة تحت تأثير تيارات ضارّة وهدامة داخلية كانت أم خارجيّة؟... أيمكن أن تدخل إلى أفلاك تلك التيارات وتكون آلة بيدها وتابعة لها؟

إنّ موقف النورسي سعيد النورسي من التيارات المنحرفة عن الحقّ والحقيقة وعن الدين والعدالة والتي تستند إلى العناد والعصبية المليّة والمنافع القومية الضيقة وإلى أنانية النفس، والتي تعمل لحساب ظلم لم تشهد الدنيا مثيلاً له... موقف النورسي لا يكتفي أن لا يكون مناصراً لها فقط، بل يرى أنّ مجرد الاطلاع عليها وتتبّع أخبارها وسماع دعاياتها الكاذبة والمضلّلة ومشاهدة ظلمها شيء لا يجوز. ذلك لأنّ الرضا بالظلم ظلم، فإن كان مناصراً له يكون ظالماً، فإن مال إليه يكون مظهراً للآية الكريمة ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.[هود:١١٣]

وملاحظات النورسي في هذا الموضوع تستحقّ التأمل اذ يقول:

"نعم، لأنّ هذه الحرب المدمّرة ليست لأجل إحقاق الحقّ وإرساء الحقيقة ولا لأجل إعلاء شأن الدين وإقرار العدالة، بل تستند إلى العناد والعصبية القوميّة والمصلحة النوعية وإشباع أنانيّة النفس، فترتكب مظالم شنيعة ومآسي أليمة لم يُر مثيلها في العالم. والدليل على ذلك:

إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمّرة بحجّة وجود جندي أو إثنين من جنود الأعداء فيما بينهم.. واتّفاق أعتى المستبدّين من البرجوازيّين مع الفوضويّين والإرهابيين الذين هم المتطرّفون من الاشتراكيين والشيوعيين وإهدار دماء ألوف بل ملايين من الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارّة للإنسانيّة جمعاء.. وردّ الصلح والسلام.. لذا فإنّ الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلاشك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أيّ قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانيّة ولا مع أيّ دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق. ولا يتنازلان ولا يتذلّلان لمعاونة أولئك؛ لأنّ فرعونيّة رهيبة ومصلحية عجيبة تستحوذان فيهم بحيث لا يمدّون يد العون إلى القرآن والإسلام بل يحاولون جعلهما آلتين طيعتين في سبيل مآربهم. فلا شك أنّ أحقية القرآن تأبى الاستناد إلى سيوف ظالمين كهؤلاء. بل الفرض على أهل القرآن والواجب عليهم الاستناد إلى قدرة ربّ العالمين ورحمته بدلاً من الاستناد إلى قوّة عجنت بدماء ملايين الأبرياء".[12]

في هذا الزمان يبيع أهل الغفلة والضلالة دينهم بدنياهم، ومع ذلك ففي نظر هؤلاء الغافلين "الذين يرجّحون قطع الزجاج الرخيصة على قطع الألماس الثمينة" فإنّ هذه الخدمة الإيمانية المقدّسة يجب ألّا تكون تابعة لأيّ تيار وألّا تكون آلة بيده.

ويقول النورسي بأنّه لكيلا تنزل قيمة هذه الخدمة القرآنية ولا تصغر في نظر العامّة، فإنّه يجب ألّا يشغل نفسه بالمسائل الخارجة عنها وبالأمور التافهة، ويقول جواباً عمّن يسأله عن سبب ذلك:

"بينما ينبغي أن تكون الحقائق الإيمانيّة أوّل مقصد وأسبقه في هذا الزمان، وتبقى سائر الأمور في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، وفي الوقت الذي ينبغي أن تكون خدمة الحقائق الإيمانية برسائل النور أجلّ وظيفة وموضع اهتمام ولهفة ومقصودة بالذات، إلاّ أنّ أحوال العالم الحاضرة ولاسيما الحياة الدنيوية والاجتماعية والحياة السياسية خاصة، وأخبار الحرب العالميّة بالأخصّ -التي هي تجلّ من تجليات غضب

الله النازل عقاباً لضلالة المدنية الحاضرة وسفاهتها- والتي تستميل الناس إلى جانبها وتهيج الأعصاب والعروق حتى تدخل إلى باطن القلب، بل حتى مكّنت فيه الرغبات الفاسدة المضرة بدلاً من الحقائق الإيمانية الرفيعة النافعة

''إنّه لأجل اطمئنان عوام المؤمنين وتقبّلهم حقائق الإيمان دون أن يساورهم أيّ تردّد، يلزم في الوقت الحاضر، وجود معلّمين، يحملون من الإيثار ما يجعلهم يضحون لا بمنافعهم الدنيويّة وحدها، بل بمنافعهم الأخروية أيضاً في سبيل منافع أهل الايمان. فيكون ذلك الدرس الإيماني خالصاً نقياً بحيث لا يفكرون فيه بالمنافع الشخصيّة مهما كانت. بل يسعون في الخدمة الإيمانيّة، بالحقائق، نيلاً لرضا الله، وعشقاً للحقيقة، وشوقاً إلى الحق والسداد الذي في الخدمة، وذلك ليطمئن كلّ من يحتاج إلى الإيمان اطمئناناً تامّاً دون حاجة إلى إيراد الأدلّة له، ولكي لا يقول: ''إنّه يخدعنا ويستميلنا'' وليعلم أنّ الحقيقة قوية بذاتها إلى حدّ لا يمكن أن تتزعزع بأيّ حال من الأحوال، ولا تكون أداةً طيّعة لأي شيء كان.. فيقوى إيمانه عندئذٍ ويقول: ''حقاً إنّ ذلك الدرس الإيماني هو عين الحقيقة'' وتمحى شبهاته ووساوسه''.[13]

القسم الثاني:

تناولنا في هذا القسم وفي القسم الثالث الذي يليه:

منهاج رسائل النور وطريقتها وغايتها.

عند تدقيق منهاج وطريقة وغاية رسائل النور يجب القيام ببعض التصنيف ورسم إطار عام لكي يتيسّر فحص وتدقيق الموضوع بشكل متكامل ومنهجي قابل للتحليل، ثم تناول الموضوع وشرحه في خطوطه الرئيسة وضمن إطار العام.

يمكن النظر إلى خطّة سير رسائل النور وإلى أسلوبه وطرازه من زاويتين:

الأولى: ماهي أسس سبيل رسائل النور؟ وبتعبير آخر على أيّ الأسس أقيم خطّ سير وسلوك رسائل النور؟

الثانية: ماهي خطط وطرق الخدمة التي تؤدّيها رسائل النور؟

ضمن هاتين الزاويتين من النظر إلى كليات رسائل النور وإلى الخدمة الإيمانية التي تقدّمها، سنقدّم ملاحظاتنا بشكل موجز. ففي هذا القسم الثاني سنوضح أسس سبيل رسائل النور، أمّا في القسم الثالث فسنوضح طرق رسائل النور عند قيامها بإيفاء خدماتها الإيمانيّة.

أسس سبيل رسائل النور

١- خدمة الإيمان وحمل دعوة القرآن

إنّ أساس سبيل رسائل النور هو خدمة الإيمان والقرآن. وغاية الخلق هي الإيمان بالله، والدعوة الكبرى هي كسب الحياة الأبدية، فهذه أكبر من الحروب العالمية، وأكبر من موضوع حاكميّة الشعب على ظهر هذه الأرض. فدعوى ربح حياة باقية وأبديّة أو خسارة تلك الحياة دعوى مفتوحة وتعود لكلّ مسلم. فإن لم يكتسب وثيقة الإيمان اكتساباً سليماً فإنّه سيخسر هذه الدعوى، وهذه هي خلاصة دعوة النورسي ولبّها. ولهذا السبب فإنّ السعي لإنقاذ الإنسان من مستنقع الكفر ومن هوة الفسق والضلالة، وجلبه إلى دائرة الإيمان وبذل كلّ المساعي والجهود في هذا السبيل إلى درجة الوجد والعشق هو محور هذه الدعوى. فالإنسان ليس عبارة عن كتلة من الجسد فحسب، إذ لا تنحصر فلسفة حياته في خدمة هذا الجسد. فلأجل تغذية هذا الجسد وخدمته لا يقطع القلب ولا اللسان ولا العقل ولا الدماغ، ولا يقدّم إلى الجسد كطعام له.

"ولكن لمّا كان الإنسان ليس مجرّد جسد، ولا يُجرّد من القلب واللسان والعقل ليعطي غذاءً للجسد، فلا يمكن إفناء تلك الجوارح. فكلّ منها يطلب التغذية والعناية. ولمّا كان باب القبر لا يغلق، بل إنّ أجلّ مسألة لدى كلّ فرد هو قلقه على ما وراء القبر. لذا لا تنحصر الوظائف التي تستند إلى احترام الناس وطاعتهم في وظائف اجتماعية وسياسيّة وعسكريّة تخص حياة الأمّة الدنيويّة. إذ كما أنّ تزويد المسافرين بتذاكر سفر وجواز مرور وظيفة، فإنّ منح وثيقة سفر للمسافرين إلى ديار الأبد ومناولتهم نوراً لتبديد ظلمات الطريق وظيفة جليلة، بحيث لا ترقى أيّة وظيفة أخرى إلى أهميّتها. فإنكار وظيفة جليلة كهذه لا يمكن إلاّ بإنكار الموت، وبتكذيب شهادة ثلاثين ألف جنازة يوميّاً تُصدق دعوى: أن الموت حق".[14]

هذه الوظيفة هي الإيمان الذي هو مفتاح السعادة الأبديّة، وترسيخه وتقويته.

لقد فتحت المدنيّة السفيهة جراحاً يصعب علاجها في روح البشر. فمن ذا الذي سيمدّ يده إلى الإنسان المحطّم والممزّق والمنحلّ بسبب التأثير المدمّر والخانق للكفر والإباحية؟ من سيحميه ومن سيرشده إلى السبيل القويم؟ هذا هو مصدر ألم النورسي. والذي يعبر عنه بهذه الجمل:

"بلى، لم ينقطع رجائي وأملي تماماً... العالم يمر بأزمة خانقة وقلق معنوي عظيم.

فالمرض الذي دبّ في جسم المجتمع الغربي وزعزع دعائمه المعنوية كأنّه وباء طاعون وبيل. فما الحلول التي يجابه بها مجتمع الإسلام هذا المرض المعدي الرهيب؟ هل بوصفات الغرب النتنة المتفسخة الباطلة؟ أم بأسس الإيمان الحيويّة لمجتمع قلعة الإسلام؟ إنّني أرى الرؤوس الكبيرة سادرة في الغفلة. فقلعة الإيمان لا تسند بأعمدة الكفر النخرة، ولهذا أبذل كلّ جهدي وسعيي في الإيمان وحده.. لذا ركّزت جهدي كلّه من أجل الإيمان فقط.

إنّهم لا يفهمون رسائل النور، أو لا يريدون أن يفهموها. يظنّونني شيخ مدرسة جامداً في الأمور الدنيوية المادية. لقد اشتغلت بالعلوم الصرفة والعلوم والفلسفات المعاصرة كلها، وحللت أعقد مسائلها، بل صنّفت فيها مصنّفات. لكني لا أعترف بألعاب المنطق ولا أصيخ سمعاً لحيل الفلسفة، بل أترنّم بجوهر حياة المجتمع، وبوجوده المعنوي وبوجدانه وإيمانه. فقد حصرت اشتغالي في أساس التوحيد والإيمان الذي أسّسه القرآن، ألا وإنّ العمود الرئيس لمجتمع الإسلام هو هذا، فإذا تزلزل يضيع المجتمع''.[15]

٢- الإخلاص

إنّ الإخلاص هو سبيل رسائل النور. فالخلاص والنجاة هو في الإخلاص، والشفرة المعنويّة من أجل قبول الخدمة القرآنية ونجاحها هي الإخلاص. ففي العمل يجب قصد وجه الله تعالى. ويقول النورسي أنّ أكبر قوة لرسائل النور تكمن في الإخلاص. وقد ألّف رسالة بهذا الخصوص، ويظهر مدى اهتمامه بالإخلاص من الكلمة التي وضعها في أوّل رسالة الإخلاص فقد قال: ''تُقرأ هذه اللمعة كل خمسة عشر يوماً في الأقلّ''.[16]

وقد بيّن النورسي أنّ إبطال حقيقة الذين أخذوا الخدمة القرآنيّة على عواتقهم أنّ طريق التخلص من الأحاسيس القذرة مثل الرياء وحبّ المظهر والحسد والحرص والطمع يتحقق بالإخلاص. إنّ حبّ الجاه وهوى توجيه الأنظار إلى النفس مرض روحي، وسبيل رسائل النور هو جعل طلب رضا الله تعالى هو الأساس.

فإذا كانت رسائل النور قد نجحت كلّ هذا النجاح -وتنجح- فإنّ السبب يكمن في سر الإخلاص.

٣- الأخوة

إنّ العلاقة في رسائل النور هي علاقة صميمية قائمة على الأخوّة الحقيقيّة دون انتظار أيّ مقابل، وهي ليست مثل العلاقة الموجودة بين الشيخ وبين المريد، ولا بين

الأب وابنه. فطلّاب النور إخوة وأصدقاء في مائدة درس القرآن يعين بعضهم بعضاً، ويعبّر عن هذا في رسائل النور بـ"الفناء في الإخوان". أي فناء بعضهم في بعض، والعيش فكريّاً في مزايا أخيه، فإن رأى فيه نقصاً أكمله وإن رأى فيه فتقاً رتقه، وإن رأى فيه سوءً تألّم له ونصحه بكلّ لطف، وحاول إصلاحه دون إبداء خشونة أو إظهار حبّ السيطرة عليه.

إنّ الايمان يقتضي المحبّة، والإسلام يقتضي الأخوّة، فروابط الوحدة الموجودة بين المؤمنين والاتفاق والامتزاج مؤسّسة بفضل أسماء الله الحسنى.

ويشرح النورسي هذا الترابط كما يلي:

"إنّ خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد.. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف. ثم، أنّ نبيّكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة. ثم، إنّكما تعيشان معاً في قرية واحدة، تحت ظلّ دولة واحدة، في بلاد واحدة.. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ العشرة".[17]

كلّ هذه الروابط سلاسل معنوية تستطيع ربط الكائنات والعوالم بعضها ببعض، وهذه الأواصر ليست مادية أو شكليّة أو سطحيّة أو سياسيّة بل تستمد نبعها من القرآن وتستثار بالانفعالات المقدّسة للحمية الدينية فهي علاقات وأواصر تتّحد وتتماسك وتتكامل ضمن روح الدعوة.

٤- سبيل رسائل النور هو العجز والفقر والشفقة والتفكّر

سبيل رسائل النور قائم على هذه الأسس الأربعة. وقد وصف النورسي هذا الطريق الذي استخرجه من القرآن الكريم بأنّه أقصر طريق للوصول إلى الله وأسلمه وأمضاه. فالمؤمن يرقى ويسمو بقدر إدراكه عجزه تجاه الله وفقره، وبقدر إدراكه نقصه وقصوره. وهكذا يوصله العجز عن طريق العبادة إلى اسم المحبوب، ويوصله الفقر إلى اسم الرحيم. وعندما يسلك طريق استعمال واستغلال فقره وعجزه، فإنّه يصبح مرآة لتجلّي الصمدانية.

إنّ ربع سلوك رسائل النور شفقة. فمن أسّس رسائل النور مدّ يد الشفقة باسم القرآن ومن أجل الآخرة إلى الناس المحيطين من الناحية المعنوية، والسعي لإنقاذهم والعمل من أجلهم وبذل كلّ الجهود في سبيل هذا.

الشفقة مثل الحب والعشق ''بل ربما أكثر منهما'' طريق واسع ومؤثّر. فطريقها هو طريق الرحمة، والنورسي متّصل مع جميع المسلمين، بل حتّى مع جميع الناس بسبيل الشفقة، والجمل التالية تبيّن مدى شفقته الواسعة.

''يقولون: لماذا تجرح فلاناً وعلّاناً؟ لا أدرى. لم أشعر ولم أتبين ممّا أرى أمامي من حريق هائل يتصاعد لهيبه إلى الأعالي يحرق أبنائي ويضرم إيماني، وإذ أنا أسعى لإخماده وإنقاذ ايماني، يحاول أحدهم إعاقتي، فتزل قدمي مصطدمةً به. فليس لهذه الحادثة الجزئية أهميّة تذكر وقيمة أمام ضراوة النار؟ يا لها من عقول صغيرة ونظرات قاصرة!''.[18]

والتفكير أساس آخر من أسس سبيل رسائل النور، فتناول المواضيع والمسائل بأبعادها الواسعة والتفكير فيها بدقة وبعمق، وإمرار الأحداث من أشعّة الفكر وتصفيتها ثم تصنيفها وتحليلها للتوصل إلى تركيبها من أسس سلوك رسائل النور. فهناك تفكير شامل وتأمل عميق في رسائل النور، والتفكير الذاتي تفكير عميق ودقيق. ففيها سباحة في شواطئ الأسرار الإلهيّة باستخدام خريطة الحقيقة الإنسانيّة وبمطالعة مرآة الماهية الإنسانية بوجدان مذعن للحقّ وبإيمان تحقيقي سمته الاطمئنان.

إنّ آفاق التفكير التي تكسبها رسائل النور للإنسان هي قراءة ومطالعة كتاب الكائنات باباً باباً وصفحة صفحة وسطراً سطراً باسم الله وعلى ضوء الأسماء الحسنى لله.

هناك ترغيب كبير للتفكّر وللتأمّل في رسائل النور، وذلك للوصول إلى سرّ الحديث النبوي الشريف ''تفكر ساعة خير من عبادة سنة'' المقصود من العبادة هنا أداء النوافل.

٥- الوفاء الخالص الكامل والثبات الدائم

''إنّ الذي تطلبه رسائل النور ثمناً لما تكسبه طلّابها الصادقين الثابتين من مغانم ومكاسب عظيمة جداً ومن نتائج عظيمة جليلة هو: الوفاء الخالص الكامل والثبات الدائم الذي لا يتزعزع''.[19]

إنّ الثبات والاستمرار في أداء الخدمة الإيمانية حتى الموت ومهما كانت الظروف والأحوال ودون خوف أو تراجع، والإيمان بالدساتير الموجودة في رسائل النور والمحافظة على العزة وعلى الكرامة الإسلاميّة وإظهار الوفاء والإخلاص والصدق لدعوة القرآن من أسس سبيل رسائل النور.

لقد كان أبرز صفات رجال الإسلام العظام الذين لعبوا أدواراً حاسمة في التاريخ

الإسلامي، والأبطال الذين حفروا أسماءهم في سجلّ التاريخ هو الثبات المخلص الصادق، فبهذا الصدق والثبات تسير الدعوة وتبقى حية. والصدق عند النورسي كان من نوع الصدق الصدّيقي والكلمات التالية تعبر بكلّ جلاء عن مدى صدقه وبطولته:

" إنّ الحقيقة المقدسة التي افتدتها ملايين الرؤوس فداءٌ لها رأسنا ايضاً، فلو أشعلتم الدنيا على رؤوسنا ناراً فلن ترضخ تلك الرؤوس التي افتدت الحقيقة القرآنيّة ولن تسلم القيادة للزندقة ولن تتخلّى عن مهمتها المقدّسة بإذن الله".[20]

٦- الشوق المطلق والشكر المطلق

من أسس رسائل النور إيفاء الشكر لله تعالى في جميع الأحوال وفي جميع الأوقات، في الألم والحزن، في الفرح والسرور، دون الوقوع في هوة اليأس ودون فقدان الأمل والشوق والعزيمة، ومهما كانت الظروف والأحوال فيجب إيفاءه دون اتّهام الرحمة الإلهية. إذ يرى النورسي:

"إنّ اليأس داء قاتل، وقد دبّ في صميم قلب العالم الإسلامي. فهذا اليأس هو الذي أوقعنا صرعى -كالأموات- حتى تمكّنت دولة غربية لا يبلغ تعدادها مليوني نسمة من التحكم في دولة شرقية مسلمة ذات العشرين مليون نسمة فتستعمرها وتسخرها في خدمتها".[21] فاليأس يمنع بلوغ كل نوع من أنواع الكمال وهو جبن وصفه للعاجزين.

لم يسقط النورسي في ظلام اليأس حتى في تلك العهود المظلمة المرعبة، التي أصدرت في حقّه أحكام الإعدام ودبرت ضده خطط الخيانة، ولم ينحن ولم يفقد جلده بل حافظ على عزّته الدينية، وبذر بذور الأمل في كلّ مكان ذهب إليه مثيراً الهمم وملهباً الحماسة والشوق للدعوة. والحماسة والشوق الموجود في رسائل النور ليس من الأنواع التي تأتي مع الأحداث وتذهب معها. بل هو شوق دائمي. لنستمع إلى هذا من رسائل النور:

"نعم... نعم... أجل.. أجل.! لو سكن طنينُ البعوض وهدأ دويّ النحل فلا تيأسوا ولا تحزنوا ولا تخمد أشواقكم أبداً، فالموسيقى الإلهية العظيمة التي تجعل بنغماتها الكون في رقصٍ وانتشاء، وتهزّ بأشجانها أسرار الحقائق، لم تسكن أبداً ولم تهدأ... بل تستمر قوية عالية هادرة".[22]

"نعم، كونوا على أمل؛ ان أعظم صوت داوٍ في انقلابات المستقبل هو صوت الإسلام الهادر.[23]

والأساس الثاني من أسس رسائل النور هو الشكر المطلق. فأهمّ شيء يريده الخالق من عباده هو الشكر. فكلّ مخلوق في هذا العالم، وكل شيء متوجّه إلى الشكر بشكل ما ويؤدّي إلى الشكر. الذي هو ثمرة شجرة الخلق:

''إنّ مقياس الشكر هو القناعة، والاقتصاد، والرضا، والامتنان. أمّا مقياس عدم الشكر والاستغناء عنه فهو الحرص، والإسراف، وعدم التقدير والاحترام، وتناول كل ما هب ودّب دون تمييز بين الحلال والحرام''.[24]

و النورسي يشرح أنواع الشكر ثم يقول إنّ الصلاة هي أجمع شكل وأشمل نوع له:

''فقد أودع سبحانه في هذا الإنسان طاقةً لاحدّ لها، وجعله محتاجاً إلى أنواع لا تحدّ من الرزق المادي والمعنوي. وما الوسيلة التي تمكّن الإنسانَ من العروج بها إلى أسمى مقام وهو مقام 'أحسن تقويم' ضمن ما يملكه من الجامعية إلاّ الشكر. فإذا انعدم الشكر يتردى الإنسان إلى أسفل سافلين ويكون مرتكباً ظلماً عظيماً''.[25]

القسم الثالث: طرق تنفيذ الخدمة في رسائل النور

١- أصبحت رسائل النور مرآة للقرآن العظيم

يرى النورسي أنّ من أهمّ أسباب الكسل الذي يبديه المسلمون نحو الأحكام الدينيّة، والإهمال واللامبالاة التي يظهرونها نحوها، هو أنّ الكتب الموضوعة والمؤلفات المكتوبة لا تعكس بشكل جيد قدسيّة المصدر والمنبع وهو القرآن الكريم، وهو يرى أنّ الاجتهادات والكتب يجب أن تكون مرآة للقرآن حيث تبرزه وتظهره أمام الأنظار، فإن أصبحت الكتب وكيلة أو ظلّاً غابت قدسية المصدر، ذلك لأنّ الذي يدعو الجمهور إلى الامتثال والطاعة هو قدسيّة المصدر أكثر من الأدلّة والبراهين:

''عندئذ لا يُقرأ كتاب 'ابن حجر' -مثلاً- بقصد ما يقوله إبن حجر نفسه، بل يُقرأ لأجل فهم ما يأمر به القرآن الكريم، وهذا الطريق بحاجة إلى زمن مديد''.[26]

فلو وجهت الأنظار بهذا الشكل إلى القرآن، وتمت الإشارة في الضرورات الدينيّة إليه، لأدّى هذا إلى إيقاظ أكثر للضمائر، ولزادت أشواق الأرواح إلى الحقائق، ولقامت قدسيّة القرآن وجاذبيّته بهزّ الضمائر، ولأثّرت الحقائق على النفوس بوساطة الإيمان، وهكذا تزداد حاكميّة القرآن ونفوذه بكلّ معنى الكلمة على النفوس بصورة مباشرة.

وهكذا فقد أصبحت رسائل النور مظهراً ومرآة لهذه الطريقة المبتكرة، إذ قامت بإظهار قدسية القرآن بشكل شفاف وجعلت قرّاءها يواجهون القرآن وجهاً لوجه

وعزلت شخصيتها تماماً. وفي مسامراته ومجالسه وفي كتبه وتأليفاته لم يطلق النورسي على نفسه ألقاباً أمثال ''قطب العارفين'' أو ''غوث الواصلين'' بل قال عن نفسه بأنّه ''دلّال'' للقرآن وخادم له. ولهذا السبب فإنّ قارئ رسائل النور لا ينظر إلى شخص المؤلّف، بل ينظر مباشرة إلى الحقائق الموجودة فيها ويحصر نظره في الأدلّة والبراهين.

ويشرح النورسي سرّ النجاح في الخدمة التي تؤدّيها رسائل النور فيقول:

''أرى أنّ قسماً من الفضائل التي تعود إلى حقائق القرآن تُمنح إلى الوسائل التي تقوم بدور الدعاة والدالين على تلك الحقائق.

والحال أنّ هذا خطأ، لأنّ قداسة المصدر وسموّه هو الذي يولّد تأثيراً يفوق تأثير براهين كثيرة. وعوام الناس إنّما ينقادون للأحكام بهذه القدسية.

ومتى ما أبدى الدلال والداعي وجوداً لنفسه، أي متى ما توجّهت الأنظار إليه -دون الحقائق- يتلاشى تأثير قدسية المصدر''.[27]

''لأنّ الزمن الحالي يحتاج إلى إعطاء نوع من الدرس القرآني الذي لا يكون في خدمة أي غرض آخر للذين لم يتوصّلوا بفطرة العبودية الموجودة في أنفسهم إلى الحقائق الإيمانية التي هي فوق كلّ شيء، وإلى الذين هم بحاجة إلى فهم هذه الحقائق وذلك بأسلوب مؤثر، بحيث يستطيع إنقاذ الإيمان في مثل دنيا الاضطراب هذه التي اختلطت فيها الأمور، ويستطيع إقناع حتى المعاندين وبعث الطمأنينة في نفوسهم، وبذلك يستطيع قصم ظهر الكفر المطلق والضلال المتمرّد والمعاند وبذلك يهب القناعة الكاملة للجميع.

ولا تحصل مثل هذه القناعة في الظروف الحالية إلاّ عندما يكون الدين بعيداً عن كونه وسيلة لأيّة غاية شخصية أو دنيوية أو أخروية، مادية كانت أو معنوية. وإذاً: ''فللّه الشكر ألوف ألوف المرات، ففي طيّ تهمة القيام باستغلال الدين في السياسة قام القدر الإلهي -الذي هو العدل المحض- طوال ثمان وعشرين سنة بمنعي من جعل الدين - دون علمي ودون إرادة مني - آلة لأي غرض شخصي، وذلك باستخدام الأيدي الظالمة للبشر في توجيه الصفعات لي وفي تذكيري وتنبيهي.. هذه الصفعات التي كانت عدلاً محضاً وتحذّرني قائلة: إياك إياك! أن تجعل الحقائق الإيمانية آلة لشخصك، وذلك لكي يعلم المحتاجون إلى الحقائق أنّ الحقائق وحدها هي التي تتكلّم، ولكيلا تبقى هناك أوهام النفس ودسائس الشيطان، بل لتخرس وتصمت.

هذا هو سرّ تأثير رسائل النور في إشعال الحماس في القلوب وفي الأرواح كالأمواج في البحار الواسعة. وهذا هو سرّ تأثيرها في القلوب وفي الأرواح وليس شيئاً غيره. ومع أنّ هناك آلافاً من العلماء سجّلوا الحقائق التي تتحدّث عنها رسائل النور في مئات الآلاف من الكتب، والتي هي أكثر بلاغة من رسائل النور، لم تستطع إيقاف الكفر البواح. فإذا كانت رسائل النور قد وفّقت إلى حدّ ما في مقارعة الكفر البواح تحت هذه الظروف القاسية، فقد كان هذا هو سر هذا النجاح.. ففي هذا الموضوع لا وجود لـ سعيد، ولا وجود لقابليّة سعيد وقدرته، فالحقيقة هي التي تتحدث عن نفسها..نعم.. الحقيقة الإيمانية هي التي تتحدّث''.[28]

٢- قامت رسائل النور بحركة تجديد في علم العقيدة وعلم الكلام

قامت رسائل بإيضاح وإثبات حقائق الإيمان وأسس الإسلام بأدلّة عقلية ومنطقية. إذ قامت بتحقيق المعنى الذي ذكره الشاعر الكبير محمد عاكف:

بالإلهام المأخوذ مباشرة من القرآن

يجب أن نقدم الإسلام إلى عقل العصر

إنّ رسائل النور هي الدرس الذي يقدّمه القرآن الحكيم إلى عقل العصر وإلى إدراكه. ففيها تمّ شرح الحقائق القرآنية بلغة العلم والتقنيّة، وبشكل ملائم لإدراك العصر، فبالمنطق وباستخدام طريقة ضرب الأمثال وطريقة التمثيل قُرّبت الحقائق البعيدة وجُمعت المسائل المتفرقة المتشتّتة ضمن إطار منهجي واحد، مما سهّل الوصول إلى أسمى الحقائق. فإلى جانب استفادة العقل فقد روعي استفادة الأحاسيس أيضاً مثل النفس والخيال والتوهّم والهوى. وبدلاً من نقب الجبال وإجراء الحفريّات لجلب المياه من أماكن بعيدة، فقد اتّبعت رسائل النور طريقة موسى عليه السلام الذي كان يجد الماء بعصاه في كلّ مكان، فأينما ضربه انفجرت عنده عيون الماء الزلّال الذي جعل الله تعالى منه كلّ شيء حي.

''ثم إنّ الرسائل ليست كبقيّة مصنّفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلّته ونظراته، ولا تتحرّك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوّفين بمجرّد أذواق القلب وكشوفاته.. وإنّما تتحرّك بخطى إتحاد العقل والقلب معا وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلّق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن إقدامها وخطواتها، فتبيّن أنوار الحقائق الإيمانيّة وتوصّلها إلى عيونها المطموسة.[29]

ورغم تلفيق الدعايات الكاذبة ضد رسائل النور ووضع الخطط السرية الأثيمة ضدها، فإنّها لاتزال تُقرأ بكلّ شوق داخل البلد وخارجه، وأحد الأسباب في هذا هو الطريقة المبتكرة التي وضعتها في الصراع بين الكفر وبين الإيمان، حيث أبانت وبرهنت على النتائج الأليمة والمرعبة للكفر وللضلال في الدنيا، وإنّ اللذة الخالية من الألم لا توجد إلّا في الإيمان وليس في غيره.

فرسائل النور برهنت على ''أنّ نوازع الإنسان وأحاسيسه المادية لا ترى العقبى، فتفضّل درهماً من لذّةٍ عاجلة على قنطار من لذّات آجلة، هذه الأحاسيس قد طغت - في هذا العصر - على عقل الإنسان وسيطرت على فكره؛ لذا فالسبيل الوحيد لإنقاذ السفيه من سفهه، هو الكشف عن ألمه في لذّته نفسها، ومساعدته على التغلب على أحاسيسه تلك؛ إذ المرء في زماننا هذا، مع علمه بلذائذ الآخرة ونعيمها الثمين كالألماس يفضّل عليها مُتعاً دنيويّة تافهة أشبه ما تكون بقطع زجاجيّة قابلة للكسر! كما تشير إليها الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾(إبراهيم:٣). وبناء على هذا ولشدة حبّه للدنيا تراه ينساق وراء أرباب الضلالة، ويتبعهم بعد أن كان من أهل الإيمان.

والسبيل الوحيد لإنقاذه من خطر الانسياق هذا، هو إظهار آلام جهنّم وعذابها في الدنيا أيضاً.

وهذا هو النهج الذي تسير عليه رسائل النور''.[30]

وهناك حال أخرى مفجعة وأليمة في هذا العصر وهي أنّ الكفر المطلق، وكذلك الكفر المعاند النابع من العلم ومن الفلسفة، أصبحا يهاجمان الحقائق الإيمانيّة ويعارضانها، لذا فهناك حاجة إلى حقيقة مقدّسة تفجّر قواعد الكفر بقوّة القنبلة الذرية وتجعلها أثراً بعد عين. وهذه الحقيقة هي رسائل النور التي هي بمثابة سيف قرآني ألماسي، ذلك لأنّ الجانب المعنوي في هذا العصر لا يتمّ إلّا بسيف الإيمان المحقّق الذي لا شبهة فيه. ورسائل النور هي المرآة التي تعكس حقائق الدين بحقّ.

٣- رسائل النور أسّست شخصية معنوية

يرى النورسي بأنّ أيّ شخص - مهما كانت مرتبته المعنويّة كبيرة – لا يستطيع النجاح في إزالة الوساوس الصادرة من الكفر ومن الضلالة ومن الإلحاد الناتج من فكرة الجمعيات السريّة التآمرية إزالة تامّة. لذا يجب وضع شخصيّة معنويّة تجاه الشخصيّة المعنوية للإلحاد. ورسائل النور أصبحت شخصية معنوية بعد أن نجحت في جلب ملايين الناس إليها. وهي لا تحمل سمة السياسة أو الجمعيات السرية المسلّحة

التآمرية، ولا سمة الجمعيات الاعتيادية، ولا سمة الفكرة القومية أو المحلية ولا سمة فكرة شخصية. بل هي عبارة عن أفراد تجمّعوا وتحلّقوا حول رسائل النور التي هي تفسير معنوي وحقيقي للقرآن، يريدون ارتشاف الحكمة والمعرفة منها، وهذه الشخصية المعنوية لا تعني جمعية علنية أو سرية بالمفهوم الاجتماعي والسياسي، بل تعني ربما ''وحدة قلبية'' نابعة عن علاقات وجدانيّة وعاطفية أو ''انتسابا للقرآن''.

إنّ أسلوب الخدمة التي تؤديها هذه الشخصية المعنوية لرسائل النور ومفهومها لا يدخلان ضمن القوالب السياسية أو الشكلية أو السطحية ولا يمكن حشرهما فيها. فخدمات هذه الشخصية المعنوية لا تنحصر في مركز معين أو لشخص أو محيط معين. ولا توجد فيها سلسلة شكليّة للآمر - والمأمور ولا علاقة فوق - تحت. فالشخصية المعنوية لرسائل النور هي ''تقارب قرآني'' و''اشتراك في العواطف العلوية السامية''. وتعدّ أقوى رابطة في حياة المجتمع وأكبر قوّة ديناميكية معنوية فيها.

لقد جمعت الشخصية المعنوية لرسائل النور أشخاصاً من مستويات متعدّدة في صعيد واحد، والخدمات التي تقدّمها حلقات الحقيقة المتداخلة بعضها في بعض والممتدّة من المركز نحو المحيط، والتي تعبّر عنها بتعابير ''الطالب -الأخ- الصديق'' لها وجوه متعدّدة، وتهدف جميعها إلى إيصال حقائق القرآن إلى كل جبهات الحياة الاجتماعية المختلفة بصورة صادقة ومخلصة، ومع أنّ أساس سلوك رسائل النور أساس واحد، إلّا أنّ المظاهر المختلفة لهذه النشاطات تتعلّق بالميل النفسي وليس بالأساس. أي أنّ رسائل النور لا تنشئ أناساً ذوي بعد واحد، أو أناساً في قالب معيّن فقط. ولكونها مظهراً لـ ''الاسم الجامع'' فإنّ كلّ شخص يأخذ من معرفتها الكليّة وحكمتها وحقيقتها وإطار فكرها حسب قابليّته وميله وفهمه وإدراكه.

ثم يعكس ذلك حسب عزيمته وجهده وصفاء روحه. وفهم المشارب هذه يساعد على وضوح الحقائق النسبية وحضورها. وإذا جاز التعبير فإنّ الشخصية المعنوية لرسائل النور ليست بستان فيه نوع واحد من شجرة الفاكهة، بل هي حديقة واسعة تحتوي على أشجار متنوّعة وعلى أثمار وفواكه متعدّدة وعلى ورود وزهور عديدة تنمو كلّها في أطيب مناخ وأحلاه. وضمن تكاملها فإنّ هذه تظهر بشكل ''جميل'' و''أجمل'' و''الأجمل''.

٤- طريقة رسائل النور هي العمل الإيجابي

الدرس الأخير الذي أعطاه النورسي سعيد النورسي قبيل وفاته كان حول ''العمل الإيجابي'' فهو يقول:

"اخواني الأعزاء!

إنّ وظيفتنا هي العمل الإيجابي البنّاء وليس السعي للعمل السلبي الهدام. والقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضى الإلهي دون التدخل بما هو موكول أمره إلى الله. إنّنا مكلفون بالتجمل بالصبر والتقلد بالشكر تجاه كلّ ضيق ومشقة تواجهنا وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي.

أقول متخذًا من نفسي مثالاً: أنّني لم أنحن تجاه التحكّم والتسلّط منذ القدم. وهذا ثابت بكثير من الحوادث. فمثلاً: عدم قيامي للقائد العام الروسي، وكما أنّني لم أعر أيّة أهميّة على أسئلة الباشوات في ديوان المحكمة العسكريّة العرفيّة الذي كان يهدّدني بالشنق والإعدام. وطوري هذا تجاه القواد الأربعة تُبيّن عدم قبولي للتحكّم والتسلّط. إلّا أنّني قابلت المعاملات الشائنة بحقّي منذ ثلاثين سنة الأخيرة بالرضى والقبول، ذلك من أجل السعي للعمل الإيجابي والاجتناب عن السعي للعمل السلبي لأجل ألاّ أتدخّل بما هو موكول أمره إلى الله. بل قابلتها بالرضى والصبر الجميل اقتداءاً بنبي الله جرجيس عليه السلام وبالصحب الكرام الذين قاسوا كثيراً في غزوة بدر وغزوة أحد.

نعم مثلاً: أنّني لم أدعُ بالسوء حتى على المدعي العام الذي اتّخذ علينا القرار الجائر رغم أنّني قد أثبتّ أخطاءه البالغة واحداً وثمانين خطأً. لأنّ المسألة الأساسية في هذا الزمان هو الجهاد المعنوي، واقامة السد المنيع أمام التخريبات المعنوية، وإعانة الأمن الداخلي بكلّ ما نملك من قوة.

نعم، إنّ في مسلكنا قوة. إلّا أنّنا لم نقم باستعمالها إلّا في تأمين الأمن الداخلي. لذا قمت طوال حياتي بتحقيق الأمن الداخلي إتباعاً لدستور الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الإسراء:١٥] أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة أخيه أو أحبّائه. إنّ هذه القوة لا يمكن استعمالها الا ضد الهجمات الخارجية. إنّ وظيفتنا -وفق دستور الآية الكريمة المذكورة- هي الإعانة على ضمان الأمن الداخلي بكلّ ما نملك من قوة. لهذا السبب لم تشتعل نار الحروب الداخليّة المخلّة بنظام الأمن وأقول كجلال الدين خوارزم شاه: إنّ وظيفتي الخدمة الإيمانية، أمّا النصر أو الهزيمة فمن الله سبحانه. وإنّني قد تلقيت درس التقلّد بالإخلاص التام من القرآن الكريم".[31]

وقد ابتعد النورسي البعد كلّه عن أيّ عمل أو نشاط يؤدي إلى إثارة أهالي البلد بعضهم ضدّ بعض أو إلى الإحساس بالانحياز نحو طرف أو إلتزام طرف، أو القيام بما يمسّ الأمن والاستقرار والهدوء. وقد أوصى تلاميذه وطلّابه بذلك بشدة. وكلامه التالي يسترعي الانتباه:

''أجل، إنّ هناك نفوذ اً وتأثيراً كما يقوله المنافقون، ولكن ليس لي، وإنّما لرسائل النور. فرسائل النور لا تنطفئ وكلّما تعرّض لها شيء قويت! ولم تستعمل إلاّ لصالح الأمة والبلاد ولا يمكن غير ذلك''.[32]

هناك أسباب حيويّة ومهمة جدّاً وراء إعطاء النورسي كلّ هذه الأهميّة للعمل الإيجابي ومراعاة الأمن والاستقرار:

إنّ الحياة الاجتماعية إن كدر ماؤها فإنّ إعادة السكون والاستقرار إليه تحتاج إلى مدة طويلة من الزمن، وتتطلّب همّة كبيرة وجهوداً مكثّفة. والبنية الاجتماعية إن اهتزّت بعوامل الاستبداد والإرهاب والفوضى، فلا يمكن أداء الخدمة فيها بشكل مستمرّ وصحي ومؤثّر. ولكي يتم نقش الحقائق القرآنية في القلوب والعقول فإنّ الهدوء الاجتماعي شيء ضروري ولازم. فإن تمّ تناول الأمور تحت تسلسل ''التهيّج - استعمال القوة الجسدية – الانحياز'' وليس تحت تسلسل ''العقل - المنطق - موازنة الأدلّة'' زادت التناقضات واكتسبت شدّة وارتفع النبض الاجتماعي، والاضطرابات الشديدة تؤدي إلى غياب الاستقرار والهدوء الداخلي وإلى انفراط عقد القلوب. وإذا غاب الهدوء احتلّ الفوضى والاستبداد والإرهاب مكانه. أمّا السدّ الذي يقطع السبيل أمام الفوضى الاجتماعية والفساد والانقلابات فهو التصرف بحركة إيجابيّة.

ولو لم يؤلّف النورسي أيّ كتاب طوال حياته لكانت أبياته الموجزة التي سنقدمها بعد قليل وصفة تستطيع البشريّة استعمالها بدءً من الأحاسيس القلبية إلى النيّة ووجهة النظر، وصولاً إلى العلاقات الفرديّة والعائلية والاجتماعية، وإلى الأبعاد الواسعة للحياة إلى جميع العلاقات البشريّة:

''اتخذ هذه القاعدة دستوراً لك:

''خذ ما صفا دع ما كدر'' فانظر بُحسن وشاهد بُحسن ليكون فكرك حسناً، وظُن ظنّاً حسناً، وفكّر حسناً لتجد الحياة اللذيذة الهانئة.

إنّ الأمل المندرج في حسن الظنّ ينفخ الحياة في الحياة، بينما اليأس المخبوء في سوء الظنّ ينخر سعادة الإنسان ويقتل الحياة''.[33]

٥- تجرّدت رسائل النور عن السياسة

لم يهتم النورسي طوال حياته بالسياسة الفعليّة أبداً، وقد رأى أنّ من أسس

وموجبات طراز خدمته تجرّده من السياسة تماماً. ومن الملفت للنظر والداعي إلى التفكير تجرّد مثل هذا الشخص الذي يستطيع تحليل الأحداث الاجتماعية والسياسيّة تحليلاً فكريّاً حكيماً وجيّداً كلّ هذا التجرد من السياسة. والحقيقة أنّ تبنيه طراز خدمة بعيدة تماماً عن السياسة يُعدّ من أكثر أفكاره جدّة، وأكثرها مدعاة إلى التحليل والبحث.

فلماذا لم يقم النورسي بتشكيل حزب ولماذا لم يعمل على تشكيل أنموذج سياسي؟ ولماذا حصر كلّ همّه وجهوده في خدمة القرآن؟ دعنا نرتّب الجواب على هذا السؤال في شكل موادّ موجزة بعد القيام بمسح شامل لرسائل النور:

آ- يرى النورسي أنّه عندما يتمّ تقييم الحوادث الاجتماعيّة يجب أن يكون التشخيص تامّاً وذو متانة وصحة. وتشخيصه الموجز هو ما يلي:

''إنّ الحياة البشريّة ما هي إلاّ كركب وقافلة تمضي، ولقد رأيت بنور القرآن الكريم في هذا الزمان، أنّ طريق تلك القافلة الماضية أدّت بهم إلى مستنقع آسن، فالبشرية تتعثّر في سيرها فهي لا تكاد تقوم حتى تقع في أوحال ملوّثة منتنة.

ولكنّ قسماً منها يمضي في طريق آمنة.

وقسم آخر قد وجد بعض الوسائل لتنجيه قدر -المستطاع- من الوحل والمستنقع.

وقسم آخر وهم الأغلبية يمضون وسط ظلام دامس في ذلك المستنقع الموحل المتّسخ.

فالعشرون من المائة من هؤلاء يلطخون وجوههم وأعينهم بذلك الوحل القذر ظنّاً منهم أنّه المسك والعنبر، بسبب سُكرهم. فتارة يقومون وأخرى يقعون وهكذا يمضون حتّى يغرقون.

أما الثمانون من المائة، فهم يعلمون حقيقة المستنقع ويتحسّسون عفونته وقذارته إلاّ انهم حائرون، إذ يعجزون عن رؤية الطريق الآمنة.

وهكذا فهناك علاجان اثنان إزاء هؤلاء:

أوّلهما: إيقاظ العشرين منهم المخمورين بالمطرقة.

وثانيها: إراءة طريق الأمان والخلاص للحائرين بإظهار النور لهم (أي بالإرشاد).

فالذي أراه أنّ ثمانين رجلاً يمسكون بالمطرقة بأيديهم تجاه العشرين، بينما يظلّ

أولئك الثمانون الحائرون البائسون دون أن يُبصّروا النور الحق، وحتى لو أُبصروا فإنّ هؤلاء لكونهم يحملون في أيديهم عصا ونوراً معاً فلا يوثق بهم. فيحاور الحائر نفسه في قلق واضطراب: تُرى أيريد هذا أن يستدرجني بالنور ليضربني بالمطرقة؟. ثم حينما تتحطّم المطرقة بالعوارض أحياناً، يذهب ذلك النور أيضاً أدراج الرياح أو ينطفئ''.[34]

ب- إنّ رسائل النور دروس قرآنيّة تهدف إلى نيل الرضا الإلهي، ولا يمكن أن نكون متحيّزين ضد أيّ شخص يأتي إلى درس الإيمان مهما كان هذا الشخص. فلا نميّز في الدرس الإيماني بين صديق وعدو، بينما التحيّز الموجود في السياسة يقضي على هذا المعنى فيختلّ معنى الإخلاص.

ج- ''هناك دوائر وحلقات للقلب والمعدة والبدن بعضها وسط بعض بدءً من الأسرة إلى المحلّة إلى المدينة إلى البلد إلى الكرة الأرضية والنوع البشري، ففي كلّ دائرة قد يكون هناك نوع من الوظيفة لكلّ إنسان. ولكنّ أكبر وظيفة وأهمّها وأكثرها دواما توجد في أصغر دائرة وهي دائرة القلب، وقد توجد الوظيفة الصغيرة والمؤقّتة والتي لا نحتاج إليها إلّا من وقت إلى آخر في أكبر دائرة. ولكنّ الدائرة الكبيرة تكون أكثر جاذبيّة، وبجاذبيّتها هذه تجذب إليها الفضوليّين وتشغلهم بها، وتجعلهم ينسون الوظيفة الحقيقيّة والوظيفة الكبرى، وتعطي دافعاً للتحيّز ولا ترى بأساً في ظلم الظالمين فتكون بذلك شريكاً في الظلم''.[35]

إنّ أوسع مجال ودائرة تكون سبباً في الغفلة وفي الانشغال بالدنيا والغرق فيها وفي نسيان الآخرة هي دائرة السياسة، فمن الصعب على الشخص السياسي المحافظة على الإخلاص والصفاء وعلى نقاء القلب، فتجاه الحوادث وفي أثناء غمار النضال هناك حاجة ماسّة إلى إيمان بوضوح الشمس لكيلا يختنق الإنسان بهذه الحوادث. لذا:

''لا يكون قسم من السياسيّين -على الأغلب- على تقوى كاملة، ولا يكون الذين هم على تقوى وصلاح تام سياسيين ما خلا الصحابة الكرام وأمثالهم من المجاهدين من السلف الصالحين. بمعنى إنّ الذين اتّخذوا السياسة هدفاً لهم يأتي الدين لديهم في المرتبة الثانية ويكون حكمه حكم التابع. أمّا المتديّن حقّ التديّن فيرى العبوديّة لله تعالى أعظم غايته في الكون، فلا ينظر إلى السياسة نظر العاشق الولهان، بل ينظر إليها -حسب مرحلتها- في المرتبة الثانية والثالثة ويستطيع أن يجعلها أداة طيّعة للدين والحقيقة. إذ بخلافه يهوّن من قيمة الألماس الثمينة إلى قطع زجاجيّة تافهة''.[36]

د- ''وحمداً لله فإنّني بسبب تجرّدي عن التيارات السياسيّة لم أبخس قيمة حقائق القرآن التي هي أثمن من الألماس ولم أجعلها بتفاهة قطع زجاجيّة بتهمة الدعاية

السياسيّة. بل تُزيد قيمة تلك الجواهر القرآنية على مرّ الأيّام وتتألّق أكثر أمام أنظار كلّ طائفة".[37]

هـ- "حذار.. حذار.. أيّها الإخوة من أن تقذفكم التيارات الدنيويّة ولاسيما السياسيّة منها ولاسيما التيارات التي تلفت الأنظار نحو الخارج، إلى التفرقة، إذ تجعلكم بعد ذلك عاجزين ضعفاء أمام الفرق الضالّة المتّحدة... فحذار أن يجري فيكم حكم ذلك الدستور الشيطانيّ والعياذ بالله: 'الحبّ في السياسة والبغض في السياسة' بدلاً من الدستور الرحماني "الحبّ في الله والبغض في الله" إذ عندها تعادون أخاً لكم هو في الحقيقة كالملاك وتولّون الحب لرفيق في السياسة وهو كالخنّاس وتبدون الرضا لظلمه، وتشاركونه في جنايته ضمناً. فحذار حذار من هذا!"[38]

و- في الحوادث السياسية "نعم، إنّ السياسة الحاضرة لإستانبول شبيهة بالأنفلونزا تسبّب الهذيان. فنحن لسنا متحرّكين ذاتياً، بل نتحرك بالوساطة. فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا، فهي تلقّن بالتنويم -المغناطيسي- ونحن نتصوّرها نابعة من أنفسنا ونجري أثر تلقينها بتخريب أعمى أصمّ".[39] فمنبع الحوادث السياسيّة ومصدرها ومواضع صنعها هو الغرب. لذا فهناك احتمال الإشتراك بعلم أو دون علم بالأعمال القذرة وبمناورات الغرب وألاعيبه. والذين ينجرفون في تلك التيارات تكون أعمالهم لحساب القوى الخارجيّة لأنّ إرادتهم لا تأثير ولا حكم لها، وكون نيّاتهم خالصة لا تفيد شيئاً.

ز- ولا يؤيّد النورسي الانشغال بالسياسة من الناحية النفسيّة أيضاً للفرد... "نعم إنّ السياسة الحاضرة تفسد القلوب، وتدع الأرواح الحسّاسة في عذاب. فالذي يروم سلامة القلب وراحة الروح عليه أن يترك السياسة.

نعم، إنّ كلّ إنسان في الوقت الحاضر، على الكرة الأرضيّة قاطبة، له نصيبه من المصائب الجارية إمّا قلباً أو روحاً أو عقلاً أو بدناً، ويعاني من العذاب والرهق ما يعاني، ولاسيما أهل الضلالة والغافلين حيث أنّهم غافلون عن الرحمة الإلهيّة الشاملة والحكمة السبحانيّة الكاملة. فمن حيث إنسانيّتهم وعلاقتهم بالبشريّة يتعذبون بالآلام الرهيبة المفجعة التي تعانيها البشريّة في الوقت الحاضر، فضلاً عن آلامهم أنفسهم، ذلك لأنّهم قد تركوا وظائفهم الحقيقيّة وأمورهم الضروريّة وأعاروا سمعهم بلهفة إلى ما لا يعنيهم من صراعات سياسيّة وشؤون آفاقية، وحوادث خارجة عن طوقهم، ويتدخّلون فيها حتى جعلوا أرواحهم حائرة وعقولهم ثرثارة، وسلبوا من أنفسهم الإشفاق والرثاء عليهم، حسب قاعدة 'الراضي بالضرر لا ينظر له' أي من يرضى لنفسه

الضرر لا يستحق النظر إليه برحمة. فلا يُرثى لهم ولا يُشفق عليهم، فهم الذين قد سبّبوا نزول البلاء بهم''.[40]

ط- ''فما دامت خدمة الإيمان والقرآن أسمى من أيّة خدمة في هذا العصر، وأنّ النوعية تفضّل الكمية، وأنّ التيارات السياسيّة المتحوّلة المتغيّرة وأحداثها المؤقّتة الزائلة لا أهميّة لها أمام خدمات الإيمان الثابتة الدائمة، بل لا ترقى لمقارنتها ولا يمكن أن تكون محوراً لها، فينبغي الاطمئنان بما منحنا ربّنا سبحانه وتعالى من مرتبة نورانيّة مفاضة علينا من نور القرآن المبين''.[41]

٦- قوّة رسائل النور أصيلة

في الخدمة التي تؤديها رسائل النور حركة وقدرة عمل دائبة ومستمرّة، ومنبع هذه القدرة هو الإيمان. فكلّما زاد إيمان الفرد زادت قدرته على العمل، وبتعبير النورسي:

''كما أنّ الايمانَ نورٌ وهو قوةٌ أيضاً. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائناتِ ويتخلّصَ من ضيق الحوادثِ، مستنداً إلى قوةِ إيمانه فَيبحرُ متفرّجاً على سفينة الحياة في خضمّ أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام قائلاً: تَوكَّلتُ على الله، ويسلّم أعباءه الثقيلةَ أمانةً إلى يدِ القُدرةِ للقدير المطلق، ويقطعُ بذلك سبيلَ الدنيا مطمئنّ البال في سهولةٍ وراحةٍ حتى يصل الى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفعَ طائراً إلى الجنّة للدخول إلى السعادة الأبدية''.[42]

إنّ الخدمات التي لا تأسر القلوب ولا تشغل الأرواح مهما بدت كبيرة في المظهر الخارجي، فإنّها -من منطلق الحقيقة- تشبه نار القش المشتعل لا تملك دواماً ولا تأثيراً،و إنّ فعاليّة ونشاط رسائل النور هو في سبيل أسمى معنى، فلكونها تأخذ ''العقل، القلب، الروح'' أساساً فهي لا تهتم بإطلاق الشعارات، بل بالحياة الواقعية، ووسيلتها ليست الهدم والتمزيق والحدّة واستعمال القوة العمياء والسلاح، بل عشق الحقيقة والإرشاد القلبي، فليست هي دون غاية أو هدف أو نظام. وفعاليّتها تساعد على استتباب الأمن والاستقرار والهدوء، وتقف في وجه الفتن والهدم الاجتماعي والاضطرابات والهزّات ولا تعطي لها فرصة، وهذه الفعاليّة تحاول بالرفق واللين وبمشاعر الرحمة والشفقة معالجة دواليب المجتمع التي أصابها الخلل والفساد. وتتميّز فعاليّتها بأنّها تقوم بنقش الحقائق في النفوس، وبالنفوذ إلى أعماق القلوب لتثير أرقّ المشاعر وتوسّع الاستعدادات السامية.

ولإيضاح مدى تأثير فعاليّة رسائل النور وقوّتها أدرج أدناه حادثة حقيقيّة:

في أثناء المحكمة التي انعقدت في ظلّ الأحكام العرفيّة سنة ١٩٨٥ أُحضر أرمني -يحتمل أنّه كان من حزب ''أصالا'' الأرمني السري- إلى قاعة السجن الذي كان أحد طلاب النور مسجوناً فيه، كان هذا الأرمني مولوداً في إسطنبول ويتقن اللغة التركيّة، فدار بينهما الحوار التالي:

سأل الأرمني:

- ما التهمة الموجّهة إليك؟ لماذا أتوا بك إلى هنا؟

- إنّني بريء. لقد جاؤا بي إلى هنا لكوني أقرأ كتاباً.

- أيّ كتاب؟

- رسالة النور.

ما إن سمع الأرمني كلمة ''رسالة النور'' حتى صمت قليلاً ثم دمدم بالكلمات التالية:

- دعوة النور.. أكثر القوى هدوءاً في العالم ولكنّها أكثر القوى قدرة وفعاليّة.

٧- طريقة تعليم وتربية رسائل النور متكاملة

لقد أسّست رسائل النور في طول البلاد وعرضها ورشة تربية دائمة، وقلبت سطح الوطن إلى مدرسة ومؤسسة معرفة، فهي تقرأ الآن بكلّ شوق داخل البلد وخارجه من قبل جميع الأعمار بدءً من الأطفال إلى الشيوخ قراءة مستمرّة. إنّ اجتماع العديد من الناس -قد يبلغ عددهم عدة ملايين- حول دروس وحقائق رسائل النور في سبيل الله، دون وجود أيّ إكراه روابط فيما بينهم، وتوحّدهم حول هذه الحقائق يُعدّ خدمة قرآنية كبيرة وحادثة مهمّة. فلم يحدث في تاريخ الإسلام أن اجتمع كلّ هذا العدد من الناس حول كتاب أيّ مؤلف. ولمّا كانت رسائل النور تجليّاً لسلوك الصحابة في هذا العصر فإنّ نظام التربية عندها انعكاس لأنموذج ''دار الأرقم'' في عصر النبوة.

إنّ طريقة التربية والتعليم لرسائل النور تعطي أهمية كبيرة لتربية المؤمنين -ولاسيما أجيال الشباب- تربية قرآنية. ويركّز هدفها التربوي على الكيفيّة أكثر من الكميّة. إذ تتّبع أنموذج ''أصحاب الصفة''، وتعكس النظرة القائلة بأنّ ''أسد واحد أفضل من ألف غنم''.

٨- لا تطلب أجراً ولا أجرة عند إيفاء الخدمة

تتّبع رسائل النور الأنبياء في موضوع نشر الحق. أي أنّها لا تطلب أجراً مقابل

خدماتها، بل تنتظر أجرها من ربّ العالمين، فهذه الدنيا عالم خدمة وليس عالم أجر. وطريقة رسائل النور هذه بعيدة عن الرياء والمظاهر وعن حبّ التصفيق، فهي طريقة لخدمة خالصة. فقد اتّخذت دستور ''تقديم الخدمة دون مظاهر'' فباستغنائها عن الشعب وبرعايتها للاقتصاد أنقذت العلم من أن يكون واسطة لجَرّ المنافع، فحافظت بذلك على عزّة العلم وعلى كرامته.

النتيجة:

يقول النورسي سعيد النورسي:

''وأنا أطمئنكم مقسما بالله أنّ قصدي من الثناء على رسائل النور إنّما هو تأييد حقائق القرآن وإثبات أركان الإيمان ونشرها. وأنّني أشكر ربّي الرحيم شكراً لا منتهى له، على أنّه لم يجعلني أعجب بنفسي قط، وأنّه أظهر لي عيوب نفسي وتقصيراتي حتى لم تبق أيّة رغبة في إظهار تلك النفس إلى الآخرين''.[43]

وعلى ضوء هذا البيان فقد حاولنا في محاضرتنا هذه ليس استعراض شخصية سعيد النورسي، بل الخدمات التي قدمها للقرآن وللإسلام حسب مقدار فهمنا. لقد أطلنا بعض الشيء، وجعلنا صبركم ينفد، غير أنّ مدح هذا المجدّد وعلاّمة القرآن باسم القرآن والثناء عليه لا يعدّ إسرافاً كما أعتقد، ذلك لأنّه كان تحت إمرة القرآن وتلميذاً من تلاميذه.

ذلك لأنّه لقمان الحكيم في عصره الذي شخّص حيرة العصر، وطبيب الإيمان ودلال القرآن، وهو من الناحية المعنوية اختصاصي على مستوى العالم.

النورسي هو طبيب زمانه الذي قدّم من صيدليّة القرآن أدوية لأمراض العصر.

النورسي هو دلّال القرآن الذي عمل على إحياء سنّة الرسول ﷺ وأعلن عن قدسيّة القرآن.

النورسي هو دليل زمانه الذي فتّش عن الخلاص في القرآن والذي جلب الأنظار إليه.

النورسي هو ناشر نور القرآن الذي أخذ على عاتقه مسؤوليّة الدعوة القرآنيّة.

النورسي هو معمار الإيمان الذي عالج الوجدان العام والقلب العام بالحكمة القرآنية.

النورسي هو الجواد الأصيل الذي سبح في شواطئ أسرار معرفة الله، وهو معرّف بالقرآن، وهو في النهاية الأمل المنتظر للإسلام.

لقد أرسي النورسي سبيله على أسس صلبة، فالطريق الذي اختطه حكيم وملائم للفطرة، فقد بدأ بألزم شيء للإنسان، فدعا البشر إلى "التوحيد". وبعد أن جعل منتسبي طريقه يمرّون من مراحل انتقالية في الفكر والقلب والروح، جعلهم يتجوّلون في الآفاق الرحبة للفكر والتأمّل، وشكّل منهم جماعة حصينة وكاملة. واستخدم الحكمة والكلمة الليّنة واللسان العذب في تبليغ دعوته، ولم يلتفت أو يهتمّ أبداً بالأسلوب الخشن الحاد والهدّام المخرّب. واستمرّ في دعوته بصبر وبجلد، وتحمل كلّ الآلام دون خوف ودون استسلام ودون التخلّي عن أسلوبه الإيجابي في التصرف. ونجح في تأسيس جيش فدائي متماسك نقي وصميمي، وأنشأ شخصيّة معنويّة قويّة تشعّ نوراً تجاه الشخصيّة المعنويّة للكفر. وقد تطلع إلى المستقبل بأمل ولم يقع في اليأس. عاش مثلما تحدّث، وتحدّث مثلما عاش، فتربع على عرش القلوب كحقيقة تعيش في الواقع، ففي سبيله وطريقته وطرازه وأسلوبه اتخذ الإنسان أساساً ورسم سبل الوصول إليه، واهتمّ كل الاهتمام بإنشاء هذا الإنسان وبكيفيّة صعوده مدارج الكمال.

وقد أصبح سعيد النورسي المنقذ المنتظر في عصره بإخلاصه التام وبتفكيره العميق وتضحيته اللّامحدودة، وبتواضعه الكبير وروحه المتآلفة وشفقته الواسعة وشخصيّته الكبيرة الخالية من الأنانيّة، وبخدماته الجليلة وبعبوديّته الخالصة الخاليّة من حبّ المظاهر، وبالتزامه المتين. لقد عكس في القرن العشرين أنموذج عصر الصحابة، ونشر أسلوب دار الأرقم وأصحاب الصفة، فحرّك الجماهير المتجمّدة الفاقدة للحركة، بمشاعر عشق الحقيقة، وجعل الإسلام مثله الأعلى، والغاية العلويّة والمقدّسة للدين فوق جميع المنافع الشخصيّة، وفوق جميع المآرب. حافظ على العزّة الدينيّة، وجعل الإخلاص والاستغناء عن الناس والتضحية والاقتصاد التام أسس قواعد حياته. وبمفهومه عن طراز الخدمة -الذي يبدأ من المركز ويتوجه نحو المحيط- فقد بدأ بشخصه وخاطب نفسه، ولم تقتصر طاقة خدماته في مكان معيّن أو زمان معين أو بيئة معينة، بل داوم على أداء خدماته المخلصة في كل مكان وزمان وتحت جميع الشروط.

وخلاصة القول أنّ رسائل النور أخذت نورها من القرآن الكريم مباشرة، أي أنّها أصبحت مثلما قال الشاعر:

إنّ التقدير الإلهي لا يمكن ردّه بقوة الذراع
وإنّ شمعة أوقدها الله لا تنطفئ بالنفخ

إنّ رسائل النور برسالتها الغنيّة وبفكرها المؤثّر وبعلمها العميق تحمل بحقّ صفة ''المعلّم''. ولكونها تزكّي الأنفس وتطمئن القلوب وتهذّب الأرواح فهي تحمل بحق صفة ''المربّي''.

إنّ قراءة رسائل النور تجعل الإنسان ينسى الإنسان، إذ تحمله إلى أقاليم المعرفة وتعجنه بأسرار وبأنوار القرآن، وتصفى نفسه وتعيد تشكيله من جديد، وتربطه برسول الله وبالقرآن وبالله. وتجعله يطير في أنوار أسماء الله الحسنى ويتنزّه في حدائق العشق والمحبّة الإلهيّة.

لذا فإنّ العالم الإسلامي بأجمعه، والبشرية جمعاء في حاجة إلى مثل هذا التفسير للقرآن وإلى منظومة الحقائق هذه في بداية نقطة انطلاقها للهداية. وستزداد هذه الحاجة يوماً بعد يوم وستحتفظ رسائل النور بشبابها وطراوتها ويناعتها حتى يوم القيامة.

* * *

الهوامش:

[1] أ.د. شَنَر دِلَك ''جامعة اينونو'': ولد عام ١٩٤٩ في قضاء ''حنص'' التابعة لمحافظة ''ارضروم''. وفي عام ١٩٧١ تخرج من كلية ادارة الاعمال في جامعة اتاتورك. في اعوام ''١٩٧٠ - ١٩٧٢'' خدم مدرسا في ثانوية التجارة في ارضروم. وفي عام ١٩٧٦ أنهى رسالته في الدكتوراه. في ١٩٨٣ أصبح استاذا مساعدا وفي عام ١٩٨٩ رقى إلى رتبة استاذ ''بروفسور''. يعمل حالياً أستاذا في كلية الادارة والاقتصاد في جامعة اينونو. وهو معروف باطلاعه العميق على رسائل النور وله مؤلفات منشورة في مجال اختصاصه.

[2] صيقل الإسلام/المناظرات - ص: ٣٩٠.

[3] الكلمة التاسعة عشرة - ص: ٢٦٤ .

[4] المكتوب العشرون - ص: ٢٨٩.

[5] الكلمة السابعة عشرة - ص: ٢٣٨.

[6] اللمعة الثانية والعشرون - ص: ٢٥٧.

[7] إشارات الإعجاز - ص: ١٧٠.

[8] المكتوبات ص: ٤١٠.

[9] الكلمات، الكلمة الخامسة والعشرون - ص: ٤١٩.

[10] اللوامع - ص: ٨٤٩.

[11] المكتوب السادس عشر - ص: ٨٩.

[12] الملاحق - ملحق قسطموني، ص: ٢٠٣.

[13] الملاحق - ملحق قسطموني، ص: ٢٢٥.

[14] اللمعة الثانية والعشرون - ص: ٢٦١.

[15] سيرة ذاتية - ص: ٤٥٦.

[16] اللمعة الحادية والعشرون - ص: ٢٤٠.

[17] المكتوب الثاني والعشرون - ص: ٣٤١.

[18] سيرة ذاتية – ص: ٤٥٧.
[19] الملاحق – ملحق قسطموني، ص: ١٥١.
[20] سيرة ذاتية – ص: ٣٣١.
[21] صيقل الإسلام/الخطبة الشامية – ص: ٥٠٥.
[22] صيقل الإسلام/المناظرات – ص: ٣٨٨.
[23] صيقل الإسلام/السانحات – ص: ٣٦٠.
[24] المكتوبات ص:٤٦٩.
[25] المكتوبات ص ٤٧٣.
[26] صيقل الإسلام/السانحات – ص: ٣٤٨.
[27] المكتوبات ص ٤١٠.
[28] سيرة ذاتية – ص: ٤٤٣.
[29] الملاحق – ملحق قسطموني، ص: ١٠٥.
[30] صيقل الإسلام/الخطبة الشامية – ص: ٤٨٣.
[31] سيرة ذاتية – ص: ٤٧٠.
[32] الملاحق – ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٣١-٢٣٢.
[33] اللوامع – ص: ٨٥٤.
[34] المكتوب الثالث عشر – ص: ٦٠.
[35] انظر المسألة الرابعة من رسالة الثمرة وهي الشعاع الحادي عشر.
[36] الملاحق – ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٥٩.
[37] المكتوب الثالث عشر – ص: ٦١.
[38] الملاحق – ملحق قسطموني، ص: ١٥٢.
[39] صيقل الإسلام/السانحات – ص: ٣٦١.
[40] الملاحق – ملحق قسطموني، ص: ١٥٢.
[41] الملاحق – ملحق قسطموني، ص: ١٣٥.
[42] الكلمة الثالثة والعشرون – ص: ٣٥٢ .
[43] الملاحق – ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٦٣.